الشيخ عبد الله العلايلي

كريم مروة *

قليلون هم أمثال الشيخ عبد الله العلايلي في عالمنا العربي المعاصر. قليلون هم الذين جمعوا مثله بعقلانيته وديمقراطيته اللتين تجلتا في فكره وفي سيرته الشخصية وفي اجتهاداته في ميادين متعددة من المعرفة، في الفقه الديني وفي علم اللغة وفي علم التاريخ وفي الموقف السياسي الجري من القضايا العامة في وطنه لبنان وفي العالم العربي. ويستطيع المتتبع لسيرة العلايلي ان يرى بوضوح انه كان، منذ شبابه الأول، مختلفاً عن سواه من اقرانه في شؤون الدين والدنيا، باحثاً بشغف عن التغيير الديمقراطي في العالم العربي، طامحاً بجهد حقيقي الى تحقيق ذلك التغيير في الفكر وفي السياسة وفي السلوك، وفي الفهم الحقيقي للدين ولقيمه الروحية، ضد كل أنواع الخرافات والبدع التي أدخلت عليه وجعلته عائقاً أمام التقدم. واستمر في تميزه ذاك حتى آخر العمر. وكان كل من تفرده وتميزه يحملان طابع الثورة وسماتها. فالثورة بالنسبة إليه لا تتحقق أهدافها بمجرد الرفض لواقع معين أو لنظام حكم معين، أو لمنظومة أفكار معينة. بل هو كان يراها عملاً متواصلاً يتصف بالجهد المبدع والشجاع، بحثاً عن البدائل الضرورية للواقع القائم وللنظام ولمنظومة الأفكار السائدة. الثورة، بالنسبة له، كانت، في كل حياته وفي عمله الفكري والسياسي، فعل تغيير في اتجاه التقدم. هكذا كان موقفه في المدرسة عندما كان طالباً. وهكذا كان موقفه عندما التحق بالازهر ليصبح رجل دين. فالازهر لم يكن، بالنسبة له، مجرد مدرسة دينية. والدين لم يكن، بالنسبة له، مجرد عقيدة. فلكل شيء، من منظار العلايلي، وظيفة تصب في صالح الحياة الإنسانية تحقيقاً لحرية الإنسان وسعادته. اذ لا عبث في حركة التاريخ كما كان

* كاتب وباحث لبناني

يقول ويكرر. ومن هذا المنطلق قرر أن يتخذ من اللغة الموقف الثوري نفسه الذي اتخذه من القضايا الاخرى، عندما اكتشف بوعي مبكر أن اللغة ليست مجرد علاقة تخاطب بين الناس. بل ان لها وظيفة أكبر من ذلك وأشمل، تتمثل في دورها كأداة تقدم.

كانت نظرة العلايلي، منذ وقت مبكر، الى الاشياء وإلى الافكار والى الناس افراداً عظاماً ومؤسسات من شتى الأنواع، محكومة بفكرة اساسية هي فكرة الابداع الدائم. والإبداع عنده يتطلب، بالضرورة، البحث عما يغني حياة البشر، ويحررهم من كل ما يعيق تجدد حياتهم وتطورها، ويحقق لهم الحرية والكرامة والتقدم والسعادة. وهذا ما أكسبه قيمته الفكرية الكبرى، وجعله واحداً من كبار رواد النهضة المعاصرين في ميادين العلم والمعرفة التي اجتهد فيها وابدع وقدم الجديد الذي رسم له شخصيته المميزة.

ولد الشيخ عبد الله العلايلي في بيروت في عام ١٩١٤. تابع دراسته الأولى في كتّاب المعلم عيسى كتوعة قرب الجامع العمري، وانتقل منه إلى كتّاب الشيخ نعمان الحنبلي الذي عرف باسم المدرسة السورية، ثم إلى كتّاب الشيخ مصطفى زهرة. التحق "بمدرسة الحرج الإبتدائية" لجميعة المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت. وظل فيها حتى عام ١٩٢٣. توجه في عام ١٩٢٤ إلى الجامع الأزهر في القاهرة برفقة شقيقه الشيخ مختار. وظل يتابع الدراسة هناك حتى عام ١٩٣٥. في عام ١٩٣٦ عاد إلى بيروت وانصرف للوعظ والإرشاد في الجامع العمري الكبير. وداوم على ذلك ثلاثة أعوام. وكان في أثناء ذلك يطرح آراءه حول قضايا إصلاحية في صيغة رسائل حول المفتي والفتوى وحول الأوقاف وحول المحاكم الشرعية. وفي عام ١٩٥٦ كلفه الجنرال فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني بالعمل على وضع معجم للمصطلحات العسكرية. وهي المهمة التي لازمها من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٨. وكانت حصيلتها أربعين ألف كلمة. وقد تولّى الجيش اللبناني طباعة هذا المعجم الذي اعتمدت عليه جامعة الدول العربية عندما أرادت توحيد المصطلحات العسكرية لجيوش الدول العربية.

يعرض الشيخ العلايلي روايتين حول أصول أسرته وحول إقامتها في بيروت. تقول الرواية الأولى بأن الأسرة قدمت من مصر، في حين تذكر الرواية الثانية أنها أتت من بلدة "علايا" في لواء الإسكندرون. ويرجح العلايلي الرواية الأولى ويقدم أدلة على ذلك منها أن الكثيرين من أبناء هذه الأسرة يقيمون منذ زمن طويل وحتى الآن في دمياط والمنصورة والإسكندرية، وأن المنقبين وجدوا في إحدى مدافن بيروت القديمة شاهد قبر يعود تاريخه إلى عام ١٧٣٢ يسجل وفاة مصطفى العلايلي ابن أخت عبد الرحمن آغا، الحاكم العسكري للقاهرة في زمن علي بك الكبير. وهذا يعنى وجود صلة واضحة بين فرعيّ العائلة. ويذكر العلايلي أنه التقى في أثناء إقامته في مصر الشيخ عبد السلام العلايلي الذي كان نقيب الأشراف في دمياط، واطلع منه على ما يفيد بأن الأسرة تقيم في مصر منذ أواخر الحكم الفاطمي (٩٦٩-١١٧١) ويرجح الشيخ العلايلي أن يكون اسم الأسرة نسبة إلى الإمام علي بن أبي طالب، من طريق إلحاق أداة النسبة التركية "لي" باسم علي.

تعرفت الى العلايلي من خلال كتاباته منذ أواخر الاربعينات من القرن الماضي. ولم التق به الا في مطالع الخمسينات. ثم توطدت علاقتي معه بدءاً من اواسط الستينات. واول ما قرأته للعلايلي كتابيه: "المعري ذلك المجهول"، و "سمو المعنى في سمو الذات او اشعة من حياة الحسين". وكنت اقرأ كتاباته في مجلات "الاديب" و "الطريق"، و"كل شيء"، و"الثقافة الوطنية". وهي بمجملها كتابات كانت تعالج قضايا وافكاراً واحداثاً سياسية واجتماعية وفكرية متعددة متنوعة. فالشيخ العلايلي لم يكن رجل دين من النوع الذي ساد طويلاً في بلداننا. بل هو كان رجل علم ومعرفة وفكر وجدل، ورجل سياسة لا يساوم ولا يهادن، ويحتقر النفاق والدجل في السياسة. وكان هذا التنوع في نشاطه الفكري والسياسي مصدر امتاع وغنى لمن كان يتابع كتاباته وخطبه وسجالاته ومعاركه السياسية والفكرية والفقهية. وحين بدأ مشروعه في علم اللغة "المعجم"، استكمالا لاهتماماته المبكرة في فقه اللغة العربية ودفاعاً عن لغتنا القومية، التي كرس لها كتابه الشهير "مقدمة في درس لغة العرب"، كان قد أصبح علاّمة متعدد ميادين العلم والمعرفة. وكان في الآن ذاته رجل سياسة يمارسها على قاعدة برنامج محدد للتغيير من موقع القيادة التي اختار أن يكون فيها شريكاً لكمال جنبلاط في تأسيس الحزب التقدمي الإشتراكي في أواسط عام ١٩٤٩. وكان كل ذلك مصدراً أساسياً في اهتمامي واهتمام الكثيرين من ابناء جيلي بالعلايلي منذ اربعينات القرن الماضي. كنت منذ مطلع شبابي مندفعاً بحماس في طريق الثورة، من موقع الانتماء للاشتراكية فكراً ومدرسة كفاح ومشروعاً مستقبلياً. وكنت اجد في فكر العلايلي وفي مواقفه وفي معاركه ما يعبر عن طموحي ويتلاقى مع افكاري. وهكذا تابعت نشاطه الفكري والسياسي. وتابعت معركته في اول خمسينات القرن الماضي للوصول الى منصب مفتي الجمهورية. وقد خاض معركته تلك على قاعدة برنامج جديد مختلف جذرياً عن الدور الكلاسيكي الطائفي الوظيفي لذلك المنصب. وتطوعت مع العديد من الشباب التقدميين الذين نشطوا في توزيع بيان العلايلي في الاوساط الشعبية خصوصاً، اثباتاً لجدية ونوعية مهمة رجل الافتاء. واذ خسر المعركة بأصوات قليلة فانه ربح الشعب. وظل يتابع معركته في الميدان السياسي من خلال مشاركته في المهرجانات الجماهيرية التي كانت خطبه الرنانة فيها تلهب المشاعر. اذ كان يحرص فيها على كشف الغطاء عن الخطأ، ويدعو الجماهير الى الثورة على كل ما هو فاسد وظالم، وعلى كل ما هو جامد معطل لحركة الانسان الحرة، معيق لتطور الحياة ولتجددها وتقدمها. ويذكر الكثيرون من أبناء جيلي خطابه الشهير الذي القاه في عام ١٩٥٧ ضد حكم الرئيس كميل شمعون امام حشد من عشرات الالوف من اهالي العاصمة بيروت. وهو الخطاب الذي اعلن فيه بصوته الجهوري وبلغته الفصيحة الجميلة الواضحة: لقد جاء بهم الأجنبي، فليذهب بهم الشعب. وكان ذلك العام حافلا بالمعارك الصعبة، التي سرعان ما انتهت في عام ١٩٥٨ الى ثورة شعبية.

وفي يقيني فإن سيرة العلايلي التي لم تكتب بعد، أو التي كتبت ولم تعرف، انما تشكل، بالنسبة للأجيال التي تبحث عن مستقبلها من خلال الثورات الشعبية، مصدر الهام ومصدر وعي ومصدر غنى في الفكر والسلوك. وحين بلغه قرار الحكومة اللبنانية بتنظيم احتفال لتكريمه، قبيل وفاته، اعلن لوسائل

الاعلام وهو يتحدث عن نفسه كمن يتحدث عن شخص آخر، أن التكريم الذي يستحقه رجل علم وصاحب تراث مثل العلايلي لا يتم بالأوسمة ولا بالتحيات ولا بزيارات التهنئة، بل بجمع تراثهم ونشره وتعميمه، بكل الوسائل. ومعروف أن ما لم ينشر من كتابات العلايلي المتفرقة، في مختلف شؤون الفكر والمعرفة والتراث واللغة والفقه الديني والتاريخ، هو أكثر بكثير مما نشر حتى الآن. ان مهمة احياء تراث العلايلي وتعميمه هي مهمة تنويرية لا بد من العمل لتحقيقها.

لفتتني في قراءة سريعة للمقدمة التي وضعها العلايلي للمجلد الأول من "المعجم" اشاراته البالغة الاهمية والدلالة في تحديد مفهوم اللغة عنده، وفي تحديد وظيفتها، وفي تحديد عناصر الخلل في تطور لغتنا العربية التي يشهد علماء غربيون كبار بأنها قادرة على أن تكون لغة علم بكل ما في الكلمة من معنى. فهو يؤكد بأن للّغة حياة، وان حياتها تخضع للتطور والتجدد مثل كل ما هو حي. ويستشهد العلايلي "بالعماد الاصفهاني" يوم كتب الى القاضي الفاضل جملته المأثورة": "انه وقع لي شيء. وما أدري اوقع لك ام لا ؟ وها انا اخبرك به. ذلك انني رأيت انه لا يكتب انسان كتاباً في يومه الا قال في غده. لو غر هذا لكان احسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن. وهذا من أعظم العبر. وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

الا أن العلايلي لا يكتفي بهذا الاستشهاد ليؤكد نظريته. بل هو يقول في المقدمة المشار اليها: "واتخذت شعاراً لدرسي كله هذه الكلمة: ليس محافظة التقليد مع الخطأ. وليس خروجا التصحيح الذي يخلق المعرفة. فلا تمنعني غرابة رأي - أظن انه صحيح- من ابدائه، لأن الشهرة لم تعد أبداً عنوان الحقيقة ... وأيضاً لا يحول بيني وبين رأي انه قليل الانصار، لأن الحق لم يعد ينال بالتصويت الغبي. فالانتخاب من عمل الطبيعة. هي لا تغالط نفسها. كما لا تعمد الى "التزوير". ويتابع العلايلي، في السياق ذاته: "... والشيء البارز الذي اردناه من وراء ذلك الكتاب (يقصد العلايلي "المعجم") هو التأكيد الملح على ان ما تعلمناه، ولما نزل نتعلمه، بات في حاجة كبيرة الى معاودة درسه وتجديد تدوينه، على وجه يكون اكبر حظاً في باب الصدق، واوفر نصيباً بمعنى الدقة ...".

لا ازعم انني خبير بعلم اللغة. لذلك فلن ادخل في بحث هو خارج قدرتي على الخوض فيه. لكنني اريد ، فقط ، أن أسجل تقديري للجهد المبدع الذي بذله العلايلي في اعادة طرح مسألة اللغة ، كوظيفة تتجاوز علاقة التخاطب. إذ هواعطاها وظيفة أشمل وأعمق وأكثر غنى ، بحيث تسهم في عملية تجديد حياتنا، وتجديد معارفنا، وتجديد مفاهيمنا. وكان يؤكد على الدوام أن لغتنا العربية هي لغة علم ومعرفة، الى جانب كونها لغة أدب ولغة دين. واذا كان ثمة من خلل اصاب قدرة هذه اللغة على مواكبة المعارف الانسانية فان المسؤولية في ذلك تعود الى الذين يشكل علم اللغة وتطورها اختصاصهم ومهمتهم. ولأنهم كانوا، كما أشار العلايلي في أكثر من مكان في كتاباته وأحاديثه ، خارج حركة الحياة. اذ أبقوا اللغة خارج عملية التطور. و يعتبر العلايلي أن تحول اللغة العربية الفصحى الى لغة خارج الاستعمال اليومي، واستبدالها باللهجات العامة المتعددة بتعدد الاقطار العربية ، هو

النتيجة الطبيعية لهذا التخلف الذي وقع فيه اصحاب الاختصاص الموكلة اليهم مهمة تطوير اللغة من علماء اللغة ومن المجامع العلمية. الامر الذي جعل اللغة ذاتها ، في تخلفها عن التطور ، واصرار علماء اللغة على تزمتهم في التعامل معها ، جزءاً من التخلف العام الذي تعاني منه بلداننا العربية، ولو بنسب متفاوتة بين بلد وآخر.

على ان جهد العلايلي في "المعجم" لم يكتمل. فالمشروع كان اكبر من قدرة شخص مهما كان شأنه ومهما كانت قدراته. لكن "المعجم"، بما حققه العلايلي فيه من جهد عظيم، سيبقى منارة في تاريخ البحث العلمي في اللغة العربية وفي فقهها.

لعل أهم ما أعطى العلايلي قيمته العلمية، كرجل دين وفكر ومعرفة، هو تأكيده الدائم على الاجتهاد والابداع في كل ما يتصل بالحياة. اذ هو لم يقصر هذا المنهج على ميدان واحد من الميادين التي كتب وساجل فيها وخاض معارك كبرى. بل هو عمم منهجه هذا على كل ميادين بحثه، وجعله بوصلة حياته العلمية. وقد يكون العلايلي من القلائل بين المفكرين من وحّد في الممارسة بين فكره وحياته العملية. لذلك فإن على الباحثين عن معرفة العلايلي معرفة حقيقية وشاملة ألا يكتفوا بنصوصه المكتوبة. بل إن عليهم أن يقرأوا أفكاره في سيرته ذاتها. فإنصاف العلايلي لا يكون بتقدير جهده الإبداعي في اللغة والدين والسياسة وحسب، بل في النظر إليه كنموذج فذ في القدرة عنده على الجمع والتوحيد بين الفكر والسياسة.

على أن الاجتهاد عند العلايلي يبرز بأجلى مظاهره التقدمية في كتابه الشهير "اين الخطأ"، الذي يتصدى فيه لتحديد فهمه للدين عموماً، وللدين الاسلامي خصوصاً. وكان عندما يدخل في سجال معلن أحياناً أو مضمر أحياناً مع مفاهيم خاطئة ومضللة ومشوهة للنصوص الدينية وللآيات القرآنية وللأحاديث النبوية، فإنه كان حاسما في الرد عليها دفاعاً عن الدين وعن قيمه. فالدين، كما فهمه العلايلي، هو دين حياة. ويتمثل موقفه هذا في تأكيده على أهمية الحياة الدنيا وأهمية الجهد العملي والعلمي لتطويرها وتجديدها من أجل خير الانسان وخلاصه وحريته وسعادته. لذلك فهو، اذ يتعامل مع النص القرآني كنص إلهي، يرى فيه جانباً عملياً تعززه الاحاديث النبوية واجتهادات الفقهاء الكبار، ممن تولوا مهمة ايصال الفكر الديني وقيمه على حقيقتها الى الجمهور الواسع. واذ يتباعد الجانب العملي عن الجانب العلمي في قراءة العلايلي لدور الدين عند نقطة الانطلاق في الشكل، فانه سرعان ما يرى الى الجانبين وهما يتحدان في المحصلة التي تقود اليها عملية الربط الصحيح بين الدين والحياة في تطورهما، من خلال الاجتهاد والابداع والتجديد. ويستند العلايلي في تأكيد هذا المفهوم لدور الدين الى الحديث النبوي والى قول مشهور للامام مالك. يقول العلايلي بالنص في مدخل كتابه "اين الخطأ": ". . واذا كان الاسلام العملي مصدر ابداع، فقد صوره الحديث النبوي بما هو اجمع واكمل: بدأ الاسلام غريبا، وسيعود كما بدأ، ولكن لا كما فهمه القدماء بظنهم أن كلمة "غريباً" من الغربة، بل

هي من الغرابة، أي الادهاش، بما لا يفتأ يطالعك به من جديد حتى لتقول ازاءه في كل عصر: إن هذا لشيء عجاب ...".

أما الاشارة الى الامام مالك في الكتاب الآنف الذكر فقد اراد منها العلايلي توجيه النقد الصارخ الى اولئك الذين يستخدمون الدين لتحقيق اغراضهم الخاصة، التي لا علاقة لها البتة بالدين وبأحكامه وأهدافه. يقول الامام مالك، كما ورد بالنص، في اشارة العلايلي اليه في مدخل الكتاب: "... كان من قبلنا يعمدون الى كتاب الله وسنة نبيه فيتلقون الاحكام. أما اليوم فنعمد الى رغباتنا، ثم نبحث في كتاب الله وسنة نبيه عما يسندها ويشهد لها ...".

ويستطرد العلايلي في نقد هذا النمط من الاستخدام السيء والمشوه لأحكام الدين في القرآن وفي السنة، فيقول في مدخل الكتاب ذاته: "... وهذه الشريعة العملية (انتبه الى العبارة الدالة في لغة العلايلي)... ينعكس فعلها في الفكر والمجتمع ومناهج السلوك، اذا ظلت أسيرة قوالب جامدة. وهذا ما حاذره المبعوث فيها في قوله الشريف: "ان الله يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مائة سنة، من يجدد دينها..."

ويحاول العلايلي اضفاء طابع علمي على هذا الحديث بالاشارة الى التغيرات التي تحصل في اجنة الانسان في فترات غير متباعدة في الزمن والتغيرات التي تحصل في حياة الجماعات، مشيراً في هذا الاطار الى العلاقة العضوية الطبيعية بين التغيرات التي تحصل في البنى الفوقية، ويسميها بلغته النواهض، وفي البنى التحتية، ويسميها بلغته الخفائض.

يستند العلايلي الى هذه الاجتهادات في فهمه للدين ولوظيفته الانسانية ليعلن الثورة في وجه الظالمين والفاسدين، الذين يستغلون جهد الناس ويستعبدونهم،"وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً"، كما يقول الخليفة عمر بن الخطاب، وليعمموا الفقر بين الناس، بدل تعميم الرفاه والكفاية، حتى "ليكاد الفقر أن يكون كفراً"، كما يقول الامام علي ابن ابي طالب. وعلى هذه القاعدة من الفهم للدين يوجه العلايلي، من خلال ثورته هذه، اصابع الاتهام الى حكامنا الذين يستأثرون بالسلطة وبالاحكام وبالاموال العامة (وللنفط ولانظمة النفط مكان اهتمام كبير في كتاب العلايلي هذا). فهم، في نظر العلايلي، إنما يسهمون في تخلف بلداننا وفي تبعيتها وفي فقرها، برغم غنى ثرواتها وثقافتها وحضارتها وتاريخها.

يقدم العلايلي في مقال له رأياً حول الابداع والاجتهاد نشرته جريدة "النهار" (حزيران ١٩٩٢). وهو رأي يؤكد فيه دور الابداع في عملية التطور فيقول: "إن الابداع عطاء الفرد، والتطور عطاء الجماعة. إن الأفكار الكبرى في التاريخ عطاء أفراد، وتغيير المجتمع عطاء جماعة. قبل الثورة الفرنسية كان فولتير شخصاً، وروسو شخصاً، وغيرهم أشخاصاً أبدعوا أفكاراً. إنه فكر أفراد. وتظل الأفكار كذلك الى أن تتبناها الجماعة فتصبح ثورة، أي تطويراً. عندما يظل فولتير فولتيراً يكون فرداً مفكراً. عندما تصبح الجماعة فولتيرية يكون التطور".

ويؤكد شيخنا في مقال قديم نشرته مجلة "الأديب" (١٩٤٧) على العلاقة العضوية بين الفرد والجماعة كشرط لتحقيق التطور والتقدم: ". . . فلكي تسود لنا حالة اجتماعية ثابتة لا بدّ من العمل على التماثل الفردي في ظل الأواصر الاجتماعية. وبذلك يقوم المجتمع على قوّتين من دفع وجذب. ففي مفهومنا أن صرختي الفردية والاشتراكية ليستا إلا تعبيرين ينمّان عما يتطلّب النوع البشري من السعادة. . ونحن إذا حلّلنا طبيعة هاتين الفكرتين في دقة تبعد عن الخطأ نجد ان إحداهما، أي الفردية، تعبر عن نظام الحرية، وأن الثانية، أي الاشتراكية، تعبر عن نظام العمل. . فهما تعبيران عن حاجتين. وتصحيح منزلتهما من جسم الكائن الاجتماعي يقوم على قاعدة الاستقرار. وكل انحراف عن سبيل عملهما جميعاً جعل العالم، ويجعله أبداً، كمتحف الطوفان".

يعطي العلايلي للانسان المقام الحقيقي الذي يعود له. يقول في مقال نشرته مجلة "الأديب" (كانون الأول ١٩٤٤) تحت عنوان "مقام الانسان": "إن خط الإنسان من الحياة كما هو في مرآة نفسه التي هي ينبوع المطلق، وليس كما هو في مرآة الوجود التي لا تعكس إلا نسبية وظلالاً خادعة ... وان الوجود كائن بسيط. وهو لا يملك إلا حقائق بسيطة. أما حقائق الوجود العظمى فهي من هبات الإنسان على الوجود ... فالحياة وأشياؤها، والوجود المعنوي وفكرته، بدعة هذا الانسان العجيب ... والإيمان بالله أو المطلق الذي دعت إليه الأديان والفلسفات انما هو في حقيقته إيمان بالإنسان، وهدم للإيمان بالوجود الصامت الذي هو وثنية تحول بين الإنسان وبين الإيمان بنفسه ومعرفتها ... والى هذا يرمز قول قديم مأثور (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ... فإن الإنسان وحده هو الحقيقة الكبرى في الحياة والوجود. فقد خلقه الله على صورته ومثاله".

كان العلايلي، الى جانب اهتماماته اللغوية والدينية والفكرية والسياسية، يعالج احداثاً تاريخية ذات صلة بتاريخ الاسلام. وقد كان يهدف من وراء الاهتمام بذلك التاريخ تصحيح وتدقيق الكثير من الامور التي كان قد كثر اللغط حولها وكثر التشويه، سواء في سيرة النبي أم في سيرة الصحابة من الخلفاء الراشدين ومن سواهم. واصاب التشويه الحروب التي خاضها النبي لنشر الدعوة الى الدين الجديد، الاسلام. فألف كتباً صحح فيها ما شوهته كتب وأحاديث مليئة بالبدع وبالخرافات وبالأكاذيب الشعبوية. ولقد لفت نظري من بين كتبه تلك كتاباه اللذان كرسهما لسيرة الحسين بن عليّ. قرأتهما بدافع الفضول لكي اعرف كيف تعامل العلايلي مع السيرة الملحمية لتلك الشخصية الفذة في تاريخ الاسلام. وفي الواقع فقد ادهشتني السيرة ذاتها بوقائعها الحقيقية المختلفة بالكامل عن السائد الذي يعرض في حفلات عاشوراء ، والذي يشوه صورة وسيرة الحسين. كما ادهشني المنهج العلمي عند العلايلي في كتابة التاريخ ، وفي سرد وقائعه، وفي تحليل الاسباب والنتائج ذات الصلة بتلك الاحداث والوقائع وسير الافراد الذين يسهمون في صنعها. فالعلايلي، اذ يتابع سيرة الحسين منذ الطفولة ، ويبين الاثر الواضح لتربية النبي محمد في حفيده ، فانه سرعان ما يكتشف في تلك الشخصية ملامح تشير الى

عبقرية صاحب العقيدة ورجل السياسة. . فالحسين، في قراءة العلايلي لسيرته من أولها الى آخرها ،هو عقائدي حازم لا يساوم في عقيدته حتى الاستشهاد ، وهو، في الوقت عينه ، سياسي براغماتي ، يعرف كيف ومتى يتقدم ، وكيف ومتى يتراجع ، وكيف ومتى يستعد للتقدم من جديد. وقد تأكد لي من قراءة السيرة الحسينية ان الحسين لم يختر عامداً متعمداً الاستشهاد. بل هو كان، مثل والده الامام عليّ ، ضد قتل النفس عن قصد. لأنه كان يعتبر الحياة اولى بأن نعيشها ، وان الموت حين يأتي فلضرورة خارج ارادة البشر وخارج تفكيرهم. وكانت واقعة كربلاء نتيجة لظروف لم يكن للحسين دور في توليدها على النحو المعروف تاريخياً. وقد شجعتني رواية العلايلي لسيرة الحسين على المضي في موقفي المعترض على العمليات الاستشهادية بكل اشكالها.

في العودة الى سيرة شيخنا الجليل، التي هي الترجمة العملية لفكره النظري، لا يسعني الا أن أقف عند بعض المحطات البالغة الدلالة فيها. وهي ثلاث محطات، من جملة محطات عديدة وغنية في حياة العلايلي، أود التوقف عندها بكلمات قليلة:

المحطة الاولى تتمثل في حدثين. الحدث الأول هو انخراطه مع كمال جنبلاط في تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي. فقد كانت له مساهمة اساسية في صياغة ميثاق الحزب. أما الحدث الثاني فهو انخراطه مع المهندس انطون ثابت في تأسيس حركة انصار السلم. يؤكد العلايلي في هذين الموقفين على أن الاسلام دين حياة وليس مجرد عقيدة، وانه فاعل ومتفاعل مع حركة التاريخ ومع احداثها، بخلاف ما يريده له المتزمتون. وقد أعطى العلايلي للسياسة، خلال وجوده في هاتين الحركتين السياسيتين، مضمونا فكريا واخلاقيا وقيمياً، بخلاف ما كان سائداً في الحياة السياسية.

المحطة الثانية هي التي تتمثل في موقفه السلبي من الثورة الناصرية، ومن الرئيس جمال عبد الناصر، بسبب تنفيذ حكم الاعدام على العاملين خميس وبقري لمجرد انهما قادا اضراباً عمالياً. ويعتبر العلايلي الثورة الناصرية انقلاباً عسكرياً مثل سائر الإنقلابات العسكرية السابقة. ويؤكد أنها بسماتها وبتدابيرها شكلت قطعاً لتطور ديمقراطي كانت معالمه تبرز وتتعمق منذ اواسط اربعينات القرن الماضي حتى اوائل الخمسينات. كان حاسماً في موقفه من الإستبداد أية كانت الصيغة التي اتخذها. وظل على امتداد حياته يدعو إلى تحرير البلدان العربية من أنظمة الإستبداد التي سادت فيها طويلاً. كان في كل مواقفه عميق الإيمان بالديمقراطية. وكان يعمل من أجل أن تسود الديمقراطية عالمنا العربي، لكي يحرر القومية العربية، التي يعلن اعتزازه بالإنتماء إليها، من كل ما شابها ويشوبها من تشويهات. وهو، اذ يكرر فعل ايمانه بالقومية العربية في كثير من المناسبات، فانه يستند في ذلك الى موقف مبدئي كان قد صاغه وحدده في مقال تحت عنوان "لماذا أنا قومي عربي" نشر في مجلة "الأديب" في عام ١٩٤٤. وهو مقال لم اعثر عليه. لكنني اثبت فيما يلي ملخصاً له صاغه الاديب علي سعد في بحثه المنشور في الكتاب المكرس للعلايلي الذي اصدره اتحاد الكتاب اللبنانيين. يقول علي سعد في تلخيصه لموقف العلايلي:

"يتضمن مقال العلايلي"لماذا أنا قومي عربي" فعل ايمان بانتمائه القومي واعتزازاً بعقيدته القومية العربية. ويعبر عن المضمون نفسه رأيه حول تأثير اللغة في تكوين الشخصية الاجتماعية والفكر القومي. ويؤكد على حقيقة أن كل الأقوام التي تعيش في البلدان العربية هي عربية، بصرف النظر عن منشئها الأصلي ومكوناتها العرقية، وذلك لمجرد أنها تتكلم اللغة العربية، وتنطبع بالآداب والتقاليد والعادات والخصائص العربية التي اقتلعت ما عداها، في الأقطار التي سيطر عليها العرب زمناً طويلاً، بفضل لغتهم وآدابهم وأنظمتهم وتقاليدهم. فنراه يعلن في المقالة المذكورة: "ولا شك في أن المد العربي وتياراته كانت عنيفة جارفة، ودخلها عنصر الزمن الطويل، حتى لنستطيع القول بأن العرب، في أية بقعة من الأرض يوجدون الآن عليها، يرجعون الى ما قبل ألف سنة، أي أن الصفة القومية العربية في كل بقعة أقدم وأرسخ من كل صفة قومية حية في العالم".

المحطة الثالثة تتمثل في موقف العلايلي من الاشتراكية، ومن الحزب الشيوعي اللبناني بالذات. فهو كان صديقاً دائماً للاشتراكيين، وصديقاً دائماً للشيوعيين. وكان، في تقديره لدور الشيوعيين، شديد الحرص على نقد الخطأ حين كان يراه واضحاً من وجهة نظره، انطلاقاً من قناعة عنده بأن مثل هذا الحزب، بالنظر لاهدافه السامية، ينبغي أن يظل مختلفاً في الفكر وفي البرنامج وفي السلوك عن القوى السياسية الرجعية والانتهازية.

قد تختلف مع العلايلي في اجتهاداته الفكرية والفقهية واللغوية والسياسية، ولكنك لا تستطيع الا ان تحترم فيه دور العالم الجليل والمفكر الكبير والفقيه المنفتح على الحياة، والسياسي المبدئي، ورجل المثل والقيم. فهذا النوع من الرجال الذين تحتاج اليهم بلداننا وهي تبحث عن نهضتها وعن مشروع جديد لهذه النهضة يقل عدده ويضعف دوره. لذلك فحين نتوقف عند جهد هذا العالم والمفكر والفقيه والمؤرخ والسياسي، سواء في ميدان البحث والاجتهاد أم في ساحات النضال، أي في النصوص المكتوبة وفي السيرة، فأننا نسهم بذلك في شق الطريق امام استلهام مثاله ونموذجه في بحثنا الراهن عن الطريق الصحيح الى النهضة، أي الى الخروج من الواقع المأزوم الى المستقبل المرتجى.